الفصل الثانى

نجيب الحداد فى عصره

١- لقب الشيخ والحداد

نجيب الحداد هو ابن سليمان الحداد وحنة اليازجى ابنة الشيخ ناصيف اليازجى العلامة المشهور . وأهل أسرة الحداد من حوران وأفرادها هم من بنى لطيف وغلب عليهم لقب « الحداد » بدلا من « لطيف » فى عهد نجم الحداد جد سليمان فقد كان يعمل بتعدين الحديد للأمير بشير الشهابى الكبير حاكم لبنان فحظى عنده ونال مرتبة رفيعة فاستمر هو ونسله من بعده يلقبون بالحداد .

ولما قدم سليمان الحداد إلى الإسكندرية تلبية لدعوة البطريرك «غوريغوريوس يوسف » أكرم غبطة البطريرك وفادته وأقامه شيخاً على طائفة الروم الكاثوليك فلقّب بالشيخ وورث أبناؤه منه اللقب [١] .

أما لقب « الشيخ » المعروفة به الأسرة اليازجية فينحدر إليها من «سعد اليازجى» صاحب المنزلة السامية لدى الأمير أحمد المعنى آخر حاكم للبنان من المعنيين فقد كتب له لأن أسلافه فى حمص كانوا كتّاب الولاة ومدبّريهم فأصاب سعد من الأمير المعنى حظوة ومكانة فكتب إليه لقب « الشيخ » لوجاهته وعلمه ولزمهم هذا اللقب بعد ذلك [٢] .

٢- حياة نجيب الحداد

ولد ببيروت فى الخامس والعشرين من شهر فبراير [٣] (شباط) سنة ١٨٦٧ فأرخ ولادته خاله حجة اللغة الشيخ إبرهيم اليازجى بقوله :

---

(١) « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ٨

(٢) « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ١ ص ٦

(٣) « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ١٥ – ٢٦

تجلى هلال السعد فى حسن طلعة بها الله وافانا بحسن وإحسان
نجيب نراه حيث أرّخ فائقاً ولا غرو فيه إنه من « سليمان »

وفى سنة ١٨٧٣ انتقلت أسرته إلى الإسكندرية فانتظم فى سلك مدرسة الإخوة (الفرير) وبقى فيها سنتين ثم تركها إلى المدرسة الأمريكية وبدت عليه فى كلتيهما مخايل النجابة والنبوغ والذكاء .

ولما اندلعت نيران الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ عاد مع أسرته إلى بيروت وأكمل علومه فى المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك وتلقى آداب اللغة العربية وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبرهيم اليازجى فبلغ منها فى زمن قصير مبلغاً عظيماً دل على أنه من تلك النبعة اليازجية .

وفى سنة ١٨٨٣ عيّن أستاذاً للغتين العربية والفرنسية فى مدرسة بعلبك وما إن يقضى فيها عاماً واحداً حتى يعود إلى الإسكندرية ملبياً دعوة سليم نقلا صاحب جريدة الأهرام فانضمّ إلى كتّابها واستمرّ يكتب فيها مؤلفاً مترجماً زهاء تسع سنوات[1] . وفى سنة ١٨٩٤ أنشأ هو وشقيقه الشيخ أمين الحداد

---

(١) ورد فى « تراجم مشاهير الشرق » لجرجى زيدان أن المترجم له « جاء الإسكندرية بعد الحوادث العرابية فتولى التحرير فى جريدة الأهرام إلى عام ١٨٩٤ » وورد فى « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ما يلى :

« وفى سنة ١٨٨٤ استقدم إلى الإسكندرية لتحرير جريدة الأهرام لسليم بك تقلا وبقى فيها تسع سنوات إلى سنة ١٨٩٤ » وورد فى مقال طانيوس عبده المنشور فى ذيل ديوان نجيب الحداد : « ثم استدعى إلى جريدة الأهرام للمساعدة فى تحريرها فكتب فيها عشر سنوات . » وقال حنا سركيس فى ترجمته لنجيب الحداد المنشورة فى المجلد الأول من مجلة «الضياء» : « حتى استدعته جريدة الأهرام بالإسكندرية ليكون من منشئيها وهو فى الخامسة عشرة كما أسلفنا فبقى المنشىء الأول فيها مدة اثنتى عشرة سنة بلا انقطاع ثم فارقها وأنشأ جريدة لسان العَرب . » أما كتاب « جريدة الأهرام » للدكتور إبرهيم عبده فيقول : « ثم جاء فى نبأ آخر أن نجيب الحداد قد انتظم فى هيئة تحرير الأهرام » ويحيل فى الهامش إلى « الإهرام فى ٢ نوفبر ١٨٩٣ » مع أن الدكتور إبرهيم عبده عندما يتكلم فى كتابه على نصيب جريدة الأهرام من الدعوة لحقوق المرأة بأقلام «مصاحفى» الجريدة أو محرريها يشير إلى مقال فى هذا الموضوع نشر لنجيب الحداد فى الأهرام بتاريخ ٢٨ من أبريل سنة ١٨٩٣ هذا والأهرام فى السنوات العشر أو التسع السابقة لانتظام الحداد فى هيئة تحريرها على ما تشير إليه مملوءة بآثاره فهل يفهم من هذا كله أنه كان يكاتبها وأنه إنما انتظمته هيئة تحريرها فى الثانى من نوفبر سنة ١٨٩٣ .

وعبده بدران جريدة «لسان العرب» اليومية وكان هو رئيس تحريرها فقضت حال الصحافة بوقف الجريدة فجاء إلى القاهرة وأصدرها مجلة أسبوعية أدبية اجتماعية .

ثم حنّ ثانية إلى الإسكندرية فنقل إليها « لسان العرب »وأنشأ هو وغالب طلمات جريدة « السلام » اليومية السياسية وتولى الكتابة فى مجلة « أنيس الجليس» لصاحبتها الأميرة ألسكندرا أفرينو وهى مجلة شهرية فكاهية نسائية أنشئت فى أوائل سنة ١٨٩٨[1] فكان يكتب فى هذه الصحف كلها وكان إلى هذا لا ينقطع عن الكتابة فى الصحف والمجلات الأخرى ولا عن التأليف والترجمة ونظم الشعر حتى أضناه العمل والكفاح فأصيب بذات الرئة فلم يمهله الداء طويلا فعادت نفسه إلى بارئها وخبا ذلك الشعاع الساطع فى اليوم التاسع من شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ وليس لصاحبه من العمر غير اثنين وثلاثين ربيعاً فنعته الصحف فى حزن وحسرة وأقيم له مأتم حافل بكاه فيه الأدباء والشعراء ولعلّ أصدق ما يصوّر حياته الكادحة الجاهدة هو مطلع مرثية خليل مطران حيث يقول

---

(١) « عاشت "مجلة أنيس الجليس" عشرة أعوام ونالت من الصيت البعيد ما لم تنله مجلة نسائية سواها قبل ذلك العهد وحسبنا برهاناً على ذلك أنها كانت تقرأ فى قصور السلاطين والملوك والأمراء والأعيان فى جميع البلاد الشرقية ولذلك فإن منشئتها السيدة ألكسندرا أفرينو أحرزت جاهاً كبيراً وذكراً مستطاباً فى عالم الصحافة والأدب . وأحرزت كذلك مكانة رفيعة لدى الملوك والسلاطين . ففى عام ١٩٠١ منحها مظفر الدين شاه إيران لقب " كوكب الشرق " وأنشأ لأجلها وساماً خاصاً بالنساء أتحفها به مع رسمه موقعاً بخطه وفى تموز ١٩٠٣ شهدت حفلة السلاملك الهمايونى بالآستانة فأنعم عليها السلطان عبد الحميد بوسام الشفقة من الدرجة الأولى وهو مرصع بالحجارة الكريمة . ولما التأمت جمعية " السلم العام" سنة ١٩٠٠ فى باريس انتدبت ألكسندرا لتمثيل سيدات مصر فيها . فأنشأت حينئذ لمصر راية سلام مخصوصة جعلتها تخفق بين رايات سائر الدول وكانت الأميرة فيزينوسكا الإيطالية رئيسة تلك الجمعية فتعرّفت ألكسندرا إليها وحظيت بصداقتها وثقتها ولم يكن للأميرة فيزينوسكا أولاد يرثون عنها بنتها الشريف فأعلنت فى وصيتها الأخيرة عن رغبتها فى أن ينتقل لقب الإمارة بعد وفاتها إلى السيدة ألكسندرا مع الحق بتسلسل هذا النعت الشريف فى ذريتها من بعدها ... وللأميرة صاحبة " أنيس الجليس " مآثر أدبية شتى فإنها عربت رواية "شقاء الأمهات" ونظمت القصائد البديعة فى مواضيع مختلفة . وطبعت ديوان الشيخ نجيب الحداد ومراثيه اعترافاً بفضله على مجلتها التى كان هو وأخوه الشيخ أمين يحرران فيها . وطبعت على نفقتها ديوان " شعر النحلة" فقرظها ناظمه الدكتور لويس صابونجى . . . »

(« تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دى طرازى ج ٤ ص ٣٢٦ و ٣٢٧)

اربأ بنفسك أن تكون نجيبـــا وازجر خليلك أن يكون أديبا
فلقد أرى موت الأديب حياته والعيش موتاً يلتقيـــه ضروبا

وأرّخ وفاته على عادة العصر كثير من الشعراء كان منهم خاله الشيخ إبرهيم اليازجي وهو الذى كان قد أرّخ ميلاده فقال فى تأريخ وفاته أبياتاً ختمها بهذا البيت :

فصغت بيتاً من التاريخ قلت به قدمات بعد «النجيب» الشعر والأدب (١)

٣ ـ صورته الجسمانية والنفسية

صوّرها لنا طانيوس عبده صديقه الحميم فقال : « أما صفاته فهو ربعة القامة حنطيّ اللون كثير التصور حادّ الذهن سمح البديهة حتى إنه قد يرتجل القصيدة الطويلة على نَفَس لا يقطعه وإذا اقترحت عليه الكتابة فى موضوع فهو يسبق جنانه اللسان ويعدو قلمه البنان وهو طاهر القلب عفّ الضمير مهذّب الأخلاق لطيف المحاضرة فصيح الكلام فإذا تكلم أنصتت إليه الأسماع وشربت حديثه العذب كل الطباع » .

ذلك كلام خدن له وصديق عرفه عن كثَب فقدّمه إلينا ورسم له هذه الصورة ولا يصعب على من يلتمس له الصورة النفسية فى آثاره الأدبية ما بين شعر ونثر أن يؤمّن على هذا الكلام ويجد فيه مصداق ما يرسمه الذهن فى لوح الخيال من صورة ذلك العبقرىّ ولكنه يجد مع ذلك فى الصورة المرسومة بقلم صديقه بعض جوانب ناقصة لعله شاء أن يتركها للمؤرخين والباحثين من بعده .

ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لنجيب الحداد قلنا إن الرجل كان رقيق القلب إلى أبعد حدود الرقّة ، وكان صاحب نفس متألمة معذبة .

---

(١) تجد ترجمة نجيب الحداد فى مصادر عدة أهمها : « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ و « تراجم مشاهير الشرق » لجرجي زيدان ج ٢ و « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو و « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود . ومقال لطانيوس عبده منشور فى ذيل ديوان الحداد ومقال آخر لحنا سركيس منشور فى المجلد الأول من مجلة « الضياء » وفى ذيل ديوان الحداد .

فرقّةُ قلبه تتمثل فى إنسانيته وتسيل على شباة قلمه سيولا من ذوب الفؤاد فإذا قرأته مال قلبك إليه وأحببته وانعقدت بين قلبك وقلبه الحىّ النابض مودّة أواصرُها من نسج السماء ولا عجب فرقّة الحواشى تأسر أقسى القلوب فما بالك إذا سرت فى حنايا الشعر الرقيق إنها تكون عندئذ السحر الذى لا يدفع ولا يقاوم .

وعذاب نفسه كذلك واضح بيّن وليس عذابه منبعثاً من شكّ يساوره فى أمر الروح والمعاد فالرجل موحّد مؤمن مسلم بما أنزله الله من ألواح وشرائع فهو فى هذا صاحب نفس مطمئنة مهدية تؤمن بالله وباليوم الآخر أفيكون إذن عذاب نفسه ناشئاً من حبيب هاجر أو صديق غادر أو عمل خاسر أو ما شاكل ذلك مما تزخر به الحياة ويميّز البشر . كلا . فإن عزيمة الرجل وذكاءه ومعرفته بطبائع الناس كفيلة أن تلطف من نفسه جرح الخيبة والإخفاق وأن تخفف عليها وقع الهجر والغدر ففيمَ إذن عذاب نفسه . إننا لنلمسه فى الصيحة الخافتة والزفرة المكبوتة تريد أن تنبعث وتنطلق مدوّية متفجرة ولكن يكتمها ويضبطها ذلك المعدن من النفس السامية التى تستعلى على البوح والإفصاح فيحملها الوعى الباطن إلى دنيا الناس مبثوثة على صفحات معانيه وخواطره كلما وجدت السبيل إلى أن تشق آية الحجاب وتبرز لبصائر الناس .

كان عمر نجيب الحداد قصيراً قصرَ عمر الورد والريحان ولكنه ملأه مع ذلك بجلائل الأعمال وحوافل الهمم وكانت نفسه تشعر فى مراحل حياتها أنها ستحيا غريبة معذبة فى هذا الوادى وادى الدموع وأنها ستحمل فيه ما تنوء بحمله رواسى الجبال فتزفر زفرتها الأولى فى صباح العمر وتقول :

سأقدم ما أبقى لىَ الدهر همةً ... وأركب فى متنيه كل ركوب
لعل اجتهاد النفس يعقب راحةً ... فتسكن أو يأتى لها بكروب[1]

وتزفر عند غروب العمر الزفرة الأخيرة مودّعة حزينة مصوّرة ذلك العذاب الذى طعمته وتغذّت به فى الحياة فتقول :

إن قلباً معذّباً نثرتهُ ... أسهم الدهر كيف ينظم شعرا
لم تبقّ لىَ المصائب إلا ... قلماً كسرُهُ أحقّ وأحرى

(١) كأنه كان على مذهب امرئ القيس القائل : « نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا »

كنت أرجوه للخطوب فأضحى ... لىَ أمضى سهامها حين يبرى
وغدا حبره يخطّ سطوراً ... تجتليها عينى دماءً حُمرا
ما يرجّيه كاتب من يراع ... لم يكن فى الذى يرجّيه حرّا

ويخيل إلينا أن هذا الشطر الأخير هو صورة حياته كلها وسرّ عذابه كله . لم يكن فى الذى يرجيه حرًّا مع أنه كان حرًّا فى عقيدته ومذهبه ومبادئه حرًّا فى الأمثلة العليا التى وقف نفسه للذود عنها وتمهيد سبل الناس إليها فأين إذن الأغلال والقيود التى كبّلته وعاش تحزّ فى نفسه ويتنزّى فى قضبانها .

أدرك نجيب الحداد أن الله خصّه بنعمة سماوية هى ملكة الشعر وموهبة البيان وأدرك بثاقب فكره وساطع ذكائه وهو بعدُ فى شرخ الشباب أن الحياة ستضع العقبات فى سبيل ملكاته وحرّيتها فتألم ثم قضى العمر متعثراً بتلك العراقيل فتعذب وكان كلما أراد أن يحلق بموهبته المجنحة شدّته إلى الأرض أثقال العيش وأوقار[1] السعى فى الرزق فخضع وأذعن على ألم ومضض وذهبت نفسه حسرات .

أوَليس من عذاب النفس أن يعتمد الشاعر قيثارته ليهزج ويتغنّى ويخاطب سكان السماء ويحلّق فى جواء السحر والفتنة وفضاء الوحى والإلهام فتحول دونه مطالب الأرض فيجيبها صاغراً عن يد[2] .

---

(١) الأوقار : جمع وقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل

(٢) ومثل هذا العذاب النفسانى لقيه أيضاً أخوه الشيخ أمين الحداد فقد جاء فى مذكراته :
« أنا الآن فى نحو السابعة والثلاثين من عمرى وصناعتى الإنشاء والتحرير فى جريدة " البصير " ومجلة " أنيس الجليس " ولكنى أكتب فى كلتيهما بدون توقيع وإننى شاعر أيضاً والشاعر ضنين بمجده مفتون بكلامه ولكنى مع كل هذا أتعمد ذلك الخلق بالتساهل فلا أوقع على نظمى بل أهبه لسواى كثيراً ولو كان جيداً أشرف به وإنما أفعل هذا فى مجلة "أنيس الجليس" خاصة لأن صاحبتها هى ألكسندرا أفرينو وهى امرأة بارعة الجمال ولكن ليس لجمالها سلطان على بالإطلاق بل أهبها ذلك فى نظير ما تهبه من أجرة وفى نظير ما ينبغى من الرجل للمرأة . أما دل سلطانها لدى فلشدة اتلافى بها إلى حد الأخوة ولكونى فى شغل شاغل عن الحسن من خلق ومن هموى ونيل فى دنياى أقل من استحقاق » (منتخبات أمين الحداد ص ٤)

وأمن على هذا صديقه حنا سركيس إذ قال :

« . . . فقد ذكر عند كلامه عن "أنيس الجليس" أنه كان يكتب فى نظير الأجرة التى كان يتناولها وهو قول وإن كان صحيحاً ولكن الأصح منه أن وفاءه الشديد لصاحبة الأنيس وبقاءه على خدمتها إلى آخر أيامه إنما كان من قبيل الاعتراف بالجميل الذى صنعته مع أخيه نجيب أيام اعتلاله وموته » (منتخبات أمين الحداد المقدمة ص ع)

وهكذا شغل نجيب الحداد حياته بصفحات يسوّدها فراراً من عيشه الأسود وبموضوعات تقترح عليه فيلبّيها سماحة وكرماً وبواجبات اجتماعية يقسر عليها فيكون عند حسن الطمع فيه والرجاء وهو لو عاش لموهبته وفنه وخصّ بهما فراغه ولا نقول وقته لغرّد وجاء بالمعجزات .

على أنه مع أصفاده وأغلاله قد أنشد وغرّد وترك لنا هذا التراث القليل الجميل الذى سيبقى فى الصالحات الباقيات ولكن أى جريمة ارتكبها القدر فى إرهاقه بتكاليف الحياة وتأليب الأدواء عليه حتى ختم الله على عذابه فانطلق إلى حيث يشبع نفسه تسبيحاً وتغريداً .

٤ ــ تأثره وتأثيره

الإنسان كالحيوان ابن الوراثة والبيئة فالوراثة تزوّده ببعض الخصال والطبائع والشيم وتعدّه لجوانب معينة فى الحياة وتقوده إلى ميادين خاصة من النشاط والسلوك كما أن التربية والبيئة تنميان فيه الملكات الموروثة وتساعدانه كذلك على اكتساب خلائق جديدة فقوى الإنسان الذهنية إذن موهوبة ومكسوبة والسعيد من الناس من جمع الخاصّتين[1] .

فالوراثة تتحكم فى الخَلق والخُلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها وليس لهم منه فى الأعم الأغلب مناص ولا فرار . . .

والوراثة الجسمانية هى التى تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات فى القبح والجمال .

ووراثة الغرائز لا تقلّ شأناً عن الوراثة الجسمانية فهى تفعل فعلها ولا تحيد عن قانونها .

كذلك وراثة القوى العقلية فإنها تسير على غرار واحد هى ووراثة الصفات الجسمانية والغرائز فالذكاء والبله والغطرسة والدعة والعبقرية والغباء والفضائل والرذائل تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف فى الأسرة

---

(١) طالع فى هذا كتاب : Sane Psychology, by *R. I. S. Mc Dowall*

الواحدة حتى لتطبع كل أسرة بطابع خاص من تلك القوى والصفات .

ولنا فى التاريخ القديم والحديث أمثلة حيّة لهذا النظام العجيب فالخطابة مثلا كانت الطابع الذى عرفت به أسر « هرتنسيوس[١] Hortensius » و « كوريون[٢] Curions » ذكوراً وإناثاً والشعر كان الصفة الغالبة على أسرة زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى كما كانت الجرائم من خصائص آل « برجيا[٣] Borgia » والطغيان من شيم آل « فسكنتى[٤] Visconti » وحب السلطان من أخلاق آل « مدسيس[٥] Médecis » والعناد والخيلاء من خلال آل « ستورت[٦] Stuart » والكبر وحب الكفاح والشجاعة من طبائع آل « جيز[٧] Guise » والشعر والعلم والأدب فى القرن التاسع عشر من مميزات كثير من الأسر الشرقية العربية نعدّ منها آل اليازجى وآل البستانى وآل الحداد .

وربما تنكبت الوراثة فى تسلسلها الخط الموصول فاستكنّت جيلا أو أكثر بل ربما توارت قروناً عدة قبل أن تنقل سمات العبقرية من فرد إلى فرد فى الأسرة الواحدة[٨] .

ذلك عمل الوراثة أما عمل البيئة فعمل القيّن الذى يجلو فرند السيف أو عمل الجوهرى الذى يصقل الدر ويثقبه أو عمل الصانع الذى يصنع من خسيس

---

(١) عميدهم « كنتوس هرتنسيوس Quintus Hortensius » (١١٤ — ٥٠ قبل الميلاد) خطيب رومانى شهير كان خصم شيشرون ثم صديقه .

(٢) عميدهم « كايوس كوريون Caius Curion » (— ٥٢ قبل الميلاد) خطيب رومانى عظيم تقلب فى مناصب الدولة وألب الجمهور على قيصر .

(٣) آل برجيا أسرة إيطالية من أصل إسبانى وكان أشد أفرادها قسوة وجرائم « قيصر برجيا César Borgia » فقد كان سياسياً ماهراً ولكن مراثياً غليظ الكبد اقترف جرائم عدة ومات سنة ١٥٠٧ ولقد اتخذه « مكيافلى » مثالا فى كتابه « الأمير » .

(٤) أسرة إيطالية شهيرة اغتصبت عرش ميلانو وحكمت من سنة ١٢٧٧ — ١٤٤٧ .

(٥) آل مدسيس هم أمراء فلورنسا بإيطاليا وقد عرف منهم لوران الأول برعايته للآداب والفنون وحمايتها (١٤٤٨ — ١٤٩٢) .

(٦) أسرة إسكتلندية كبيرة كان منها كثير من ملوك إسكتلندة وإنجلترا .

(٧) أسرة فرنسية مشهورة عميدها « كلود دى لورين Claude de Lorraine » نصر فرنسوا الأول على شرلكان .

(٨) طالع فى هذا كتاب : Hygiène et Physiologie du Mariage, par *A. Debay*

المعادن أشكالا من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة فى صقل المواهب أو فى التخلّق بأخلاق معيّنة أمر مسلّم به حتى لقد تسرّب هذا القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين : « قل لى من تعاشر أقل لك من أنت » وحتى ذهب الفيلسوف الفرنسى « تين » إلى القول إن قيمة الإنسان من قيمة البيئة التى يعيش فيها بل ذهب إلى إرجاع كل عمل أدبى أو فنى إلى عناصر ثلاثة هى العرق والبيئة والزمن .

ومن أطرف الأدلة على تأثير البيئة ما رواه محيى الدين بن عربى قال : « حكى لنا بعض الأدباء عن ابن الجهم وكان بدوياً جافياً لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التى يقول فيها يخاطب الخليفة :

أنتَ كالكلب فى حفاظك للودّ ... وكالتيس فى قراع الخطوب
أنتَ كالدّلو لا عدمناك دلواً ... من كبار الدّلا كثير الذّنوب (١)

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه وعرف أنه ما رأى سوى ما شبّهه به لعدم المخالطة وملازمة البادية فأمر له بدارٍ حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح والجسر قريب منه وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به وكان يركب فى أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ولطافة الحَضَر ويرجع إلى بيته فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده فحضر وأنشد :

عيون المها بين الرّصافة والجسر ... جلبنَ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

فقال المتوكل : « لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة . » (٢)

ومهما يكن من شأن هذه القصة واختلافها بين الحقيقة والخيال وسواء

---

(١) من معانى الذنوب : الدلو والحظ والنصيب .

(٢) ديوان على بن الجهم بتحقيق خليل مردم وقد نقلت هذه القصة فيه عن « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » لمحيى الدين بن عربى ٢ — ٣ ويرى محقق الديوان أنها قصة خيالية يظهر عليها الوضع وأن البيتين إن صحت نسبتهما لعلى بن الجهم فإنما يكون قالهما فى أحد مجالس المتوكل يعبث ببعض الندماء أو المضحكين . (ص ١١٧ من الديوان) .

حدثت بحضرة الخليفة أم لم تعرفها مجالسه فإنها لا تعدو أن تكون مثلا لتأثير البيئة فى قريحة الشاعر فمن البداهة أن يتناول البدوى عناصر تشبيهاته من بيئته البدوية حتى إذا سكن الحضر ووقعت عينه على مجالى الحضارة فيه تأثرتها نفسه واستوحى عناصر التشبيه من بيئته الجديدة .

* * *

ونجيب الحداد ابن الوراثة وابن البيئة وابن العصر .

فأبوه سليمان الحداد أديب شاعر ترعرع مع أبيه جرجس فى دار الأمير بشير الكبير الحافلة بالأدباء والشعراء وله فى النثر والشعر آثار طيبة منها ديوانه المسمى « قلادة العصر » . وأم نجيب الحداد هى ابنة العلامة الكبير الشيخ ناصيف اليازجى وهو من هو وأخواله الشيوخ حبيب وخليل وإبرهيم اليازجى أدباء علماء شعراء كان لهم الأيادى البيض على الآداب والعلوم وخالته هى الشاعرة الشهيرة وردة بنت ناصيف اليازجى فهو إذن من دوحة تمتّ بعروقها وفروعها إلى الأدب والعلم والشعر .

وأكثر من ترجم لنجيب الحداد ذكر أنه ترعرع فى بيت علم من جدّه لأمّه اليازجى الأكبر وأخواله ووالده . . . وتلقى آداب اللغة العربية وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبراهيم اليازجى [١] وأنه ربى فى مهد الأدب وورث ملكة الشعر من جدّيه ورضع لبان النظم والنثر من خاليه وتلقى بعض العلم عنهما ولكنه فطر على الأدب منذ نعومة أظفاره فنظم الشعر قبل أن يدرك الحلم [٢] .

فالوراثة كانت عاملا كبيراً فى موهبته اللدنية سهّلت من عمل البيئة وساعدتها فى صقل الموهبة وتجليتها فانبثقت وبزغت وضّاحة مشرقة .

ولقد كان للبيئة أثرها الفعّال فى تنمية ملكة الشعر فى نجيب الحداد وإعداد نفسه لتلقى الآداب والعلوم .

فأول ذلك الأثر أنه عاش فى بلدين وهبهما الله قسطاً وافراً من الجمال فقد قضى القسم الأول من طفولته وردحاً قليلا من شبابه ببيروت ولبنان فانطبعت فى نفسه صور جميلة من زرقة البحر وزرقة السماء ومن هدير الأمواج وسبحات الكواكب

---

(١) « الغرر التاريخية فى الأسرة اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف ج ٢ ص ١٥

(٢) « تراجم مشاهير الشرق » لجرجى زيدان ج ١ ص٢٣٦

كما انطبعت فيها صور فاتنة من مشارف لبنان وهضابه ومن أوديته وينابيعه ومن غاباته وحدائقه وشاء له القدر أن يتمّ طفولته وحداثته ثم شبابه كله فى ثغر الإسكندرية الجميل فتستكمل فى نفسه صور البحر الزاخر والموج المتلاطم وألوان السحب المنعكسة على صفحات الماء ألواحاً متباينة الألوان متعددة المفاتن وتكمل فى جوانحه صورة الجبل فى تلعاته وريوده بصورة السهل فى بطاحه المنبسطة وسواقيه المتغنية وزراعاته الخصبة مما تقع عليه النفس والعين فى الريف المصرى الجميل الوادع فضلا عن حدائق الإسكندرية الملتفّة الغصون والأوراق والمنقوشة بمختلف الأزهار والرياحين وبله شواطئ الإسكندرية الجميلة فى هوائها البليل ونسيمها العليل ورمالها الناعمة يحمل إليها الموج دفقات الزبد فتغتسل الرمال بها وتتنشّف بنسيج الشمس فتلتمع وتتألق لمعان التبر وتألق الذهب .

وتتعاقب عليه آثار البيئة فى جوانبها العملية فتيسّر له الدراسة المنتظمة فى مدارس لبنان والإسكندرية وتخصّه بنعمة كبيرة إذ تمنحه المعلم الماهر والأستاذ الكفىّ ولا ريب أن الموهبة الفطرية إذا تعهدتها عناية المربى القدير أزهرت ثم أينعت فى وقت قصير فقد كان من نعم الله على نجيب الحداد وعلى الشعلة المقدسة المتأججة فى صدره أن تذكى ضرامها نفثات خاليه العلامتين الشيخين خليل وإبرهيم اليازجى فتلقّى العلم عن مثلهما اختصار للزمن أى اختصار وعدول عن الجداول إلى النبع الفوّار الفيّاض .

ولقد عرفتُ أدباء عرفوا الشيخ إبرهيم اليازجى واختلفوا إليه يزورونه لماماً فكان لهم من تلك الزورات أجزل النفع فأخذوا عنه الفوائد والفرائد واستبانت لهم سبل اللغة والأدب معبّدة موطّأة فمشوا بها خبباً إلى غاياتها .

وعرفت كذلك أدباء عرفوه بآثاره فانكبّوا عليها يستوعبونها استيعاباً فكانت لهم نعم المرشد ونعم الهادى إلى ذخائر اللغة والأدب وكنوزهما فما بالك بمن يتلقى العلم على يديه مشافهة ويجالس إليه أياماً متتابعة وأشهراً موصولة إنه لابدّ بالغ من أمنيته مبلغاً عظيما وهكذا كان شأن نجيب الحداد فقد عبّ من المناهل اليازجية فساعدته على دراسته الخاصة وعلى الضرب فى مناكب الزمن طائفاً بحدائق العرب يقطف منها ويجنى أنضر الريحان وأينع الثمار .

وقدر الله كذلك لنجيب الحداد أن يعيش فى بيئة أدبية يحفّ فيها

بالأدباء ويحنّون به فالصحافة فى عهده كان قد نبه شأنها واستقام أمرها وسارت تؤدّى رسالتها فكان من حماة اللواء فيها ولم تكن الصحافة فى عهده غريبة عن الأدب بل كانت فرعاً منه ولئن أصبحت اليوم علماً قائماً برأسه له فنه وأصوله وقواعده إن الأدباء لا يزالون أنجح الصحافيين فالأدب يقوم من الصحافة مقام الروح من الجسد وحياة كل عمل مستمدّة من الروح المتردد فى ضلوعه وحناياه .

وما كانت بيئة نجيب الحداد مقصورة على الصحافة وعلى الأدب المتفرع عليها بل كانت إلى ذلك بيئة أدبية خالصة قوامها الشعر ينظمه فى الدواعى التى تهز قريحته وشاعريته وقوامها النثر يستخدمه فى مقالاته المختلفة الأغراض والمباعث وقوامها الشعر والنثر معاً يفصلهما برود قشيبة لروائع المسرح حتى نهض المسرح نهضة مباركة وكان الحداد فيها دعامة من أقوى الدعائم .

وبيئة نجيب الحداد بيئة عربية مصرية لبنانية تأثرها وأثر فيها وعاش فى تلك البيئة معتمداً على تراث ضخم من أدب العرب وبلاغتهم يستند إليهما فى شعره ونثره ليجلو المعانى القديمة مسبوكة فى قالب جديد أو ليجلو المعانى العصرية يستلهمها أدب العصر وحضارة العصر فاختلف نثره بين السجع والترسّل ونسج فى الشعر على منوال شعراء الرقة فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى .

على أن تلك البيئة العربية الخالصة لم تكن بمعزل عن المؤثرات الغربية فحمله تمكنه من اللغة الفرنسية إلى ترجمة ذلك العدد الكبير من الروايات والتمثيليات وحمله على أن يتأثر البيئة الفرنسية ولو عن بعد ناقلا منها إلى بيئته العربية آدابها ومعارفها بل حوادثها وأخبارها وما من شكّ فى أن شاعريته قد طافت بشعراء تلك البيئة ممن عاش فى القرن التاسع عشر أو عاش فى القرون السابقة فلقى الظل الظليل عند «كورناى» و«راسين» و«موليير» من أصحاب المدرسة القديمة ووجد متعة الخيال الخصيب والقصص التاريخى عند «دوماس» كما وجد التجاوب الروحى عند «هوجو» و«لامرتين» و«موسه» من أصحاب المدرسة الحديثة فنقل ماشاء له أن ينقل من آثارهم .

بيد أن شاعريته تأثرت « لامرتين » تأثراً خاصاً ولعل نفسه المعذبة وجدت فى زفرات « لامرتين » رجع نواحها فنهلت من مدامع الشاعر الفرنسى وظهر أثر ذلك الرىّ على صفحات شعر الحداد بارزاً فى بعضها متوارياً وراء حجب النفس فى بعضها الآخر .

وكان نجيب الحداد إلى ذلك كله ابن العصر الذى عاش فيه فقد اشترك فى حوادثه وأحداثه وشارك فى نزعاته وأمياله وراقب وسجّل أطواره وأمواج حركاته فنزل من عصره فى الصميم متميزاً بالعاطفة الصادقة والسريرة الصافية والخلق القويم والقلم العفّ والنفس التى تساير مواكب العصر فتقبل فى الحياة وفى الأدب كل طريف جديد لا يندّ عن الأخلاق والعادات العربية ولا يشذّ عن بلاغة الضاد .

وكان من الطبيعى أن تنعكس على الأدب أنوار المدنية الجديدة فالأدب روح العصر وصورته فبرز نجيب الحداد فى طليعة المجددين يستوحى آيات العصر ويصوّرها شعراً ونثراً فى أطرٍ من البلاغة العربية والبيان الرصين .

أما تأثيره الخلقى فى محيطه فكان على أعظم جانب فقد ظفر من محبة الناس وإجلالهم بما لا يظفر به منهم إلا أصحاب النفوس الرفيعة والقلوب الكبيرة وأصحاب الخلق الذى لا يمتّ إلى أخلاق أهل الأرض بسبب وإنما يمتّ إلى أخلاق الملائكة وخلال الملأ الأعلى ولقد صوّرت لنا ذلك الأثر أقلام إخوانه من الأدباء يوم رثوه وأبّنوه ذارفين عليه الدمع السخين ويوم كتبوا عنه وترجموا له ملتزمين فيه جانب المؤرخ الصادق .

وأما تأثيره الأدبى إبّان حياته وبعد وفاته فكان واسع الأثر ممتد الأفق يقفنا عليه تهافتُ الناس فى عصره على مطالعة آثاره وشهود تمثيلياته « حتى أصبح يتغنى بشعره المنشدون ويتناشده الناس لما اختصّ به من الطلاوة والسهولة والإبداع ولذلك فقدّ بعد صيته وانتشر شعره فى جميع أرجاء القطرين المصرى والسورى انتشاراً لم يسبق لسواه من مشاهير الكتّاب . . . وله فى جريدة "لسان العرب" المقالات الرّنانة التى بلغ دويّها جميع أنحاء هذا القطر ودلت على مكانته العليا من البلاغة فى عالم الإنشاء فزادته شهرة على شهرته الواسعة وأقبل القراء عليها من كل صوب لما بلغت إليه من بعد الصيت بفضل هذا المنشئ البليغ وقد أدرك سرّ بلاغته من قرأ كلامه من الملوك فأهداه سلطان زنجبار رحمه الله وسام الكوكب الدرى من الدرجة الثالثة مكافأة له عما بذله فى خدمة العلم وحضر بعض رواياته الدون "كارلوس" الذى ملك جانباً من إسبانيا وهو مطالب بعرشها الآن عند تجواله فى القطر المصرى فأهدى إليه دبوساً من اللؤلؤ

الثمين وبعث إليه برسمه وقد كتب عليه بخط يده كتابة تدل على شدة اعتباره لهذا الروائى الشهير . »[١]

تلك شهادة عشير له هو الشاعر الناثر المرحوم طانيوس عبده نستدل منها على أدب نجيب الحداد وأثره فى عصره .

ثم يحطم القدر ذلك القلم الرهيف الذى يمجّ سنانه الشهد وذوب العطر وتأخذ الحميّة والوفاء وقدس الذكرى بعض خلصائه فيطبعون ما اجتمع لديهم من شعره وكان هو فى أخريات أيامه قد شرع يجمعه ويرتّبه[٢] ويجمعون له من مقالاته « منتخبات » وينهضون إلى طبع بعض رواياته فتقبل الناشئة ويقبل الشباب ويقبل القراء عامة على تلك النفائس يتغذون منها فى جشع ونهم .

وحسبنا دلالة على ذلك قول شيخ من شيوخ الأدب اليوم هو الأستاذ مارون عبود متّعه الله بالعمر المطويل فقد كان هو وكثيرون غيره ممن تأدب فى ريعان الصبا على نجيب الحداد وجعلوه فى عداد الأئمة الذين أخذوا عنهم واقتدوا بهم قال : « . . . كان للمقالة الشأن الأول فى فجر النهضة ولهذا نرى أثر الشدياق وإسحق ظاهراً فى جميع من أتوا بعدهما فقد كان يوصينا أساتذتنا بقراءة مقالات هؤلاء وخصوصاً درر الأديب ومنتخبات النجيب فكان هذان الكتابان فى قماطرنا ـ طبقاتنا ـ إلى جانب نهج البلاغة نظل ننهل منها ونعلّ حتى نخرج من قاعة الدرس جارّين الذيل تيهاً كالتغلبى . . . لنجيب منتخبات طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها كانت مثالا لنا فى ذلك الزمن نطبع على غراره . . . ونجيب الحداد شاعر مطبوع وله ديوان كنا نقتله مدارسة نطوف به من الجلد إلى الجلد مرات . . .[٣] »

وشهد شاهد من أهلها . . .

---

(١) مقال طانيوس عبده فى ذيل الديوان .

(٢) يستفاد من كلام السيدة ألكسندرا أفرينو ناشرة الديوان أن الديوان لم ينتظم شعر نجيب الحداد كله فثلاثة أرباعه متفرق فى رواياته الكثيرة ولا يصح أن ينتزع منها بل سيطبع معها ويستفاد أيضاً من كلامها أن هناك قصائد ومقطعات بين أيدى أصدقاء الحداد الكثيرين دون أن يجعل نسخاً منها عنده فالتمستها منهم بألسنة الجرائد والكتب فجاءها منها شىء أودعته الديوان وبقيت أشياء.

(٣) « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود ص ١٥٠ – ١٥٣ .